The delegation of Sultan Abdulaziz (1866-1876) AD to the Western Europe 1867AD.

Dalia Shahoud[1]
Dr. Aiman Sallat[2]
Dr. Wissam Ayyash[3]

(Received 26 / 5 / 2025. Accepted 5 / 8 / 2025)

□ ABSTRACT □

The rule of the Ottoman Sultans was always characterized by strength and greatness, and by adopting the titles that indicates universality, and according to that, there was no Ottoman Sultan took the initiative to open up the door politically to the western Europe, or even to make a personal visit or a tour. This remained until Sultan Abdulaziz broke this centuries-old principles before his ascension to the power in 1866. And based on this, the official delegation that have been led by Sultan Abdulaziz to the kings of Europe in 1867 which caused a stir in both of the Ottoman and the European spheres. It was a turning point that began with a change in the Ottoman ideology toward the "infidel" west and to be open to others.

The immediate reason for this visit was at the invitation of the French Emperor Napoleon III. As the Ottoman Empire was suffering from degradation and corruption in the nineteenth century AD, and these reforms came within various economic, social, political, administrative, and other areas.

And it is worth noting that this official visit was a near-comprehensive tour to the most important European capitals (Paris, London, Vienna), which have been left significant impacts on the field of reforms or "Tanzimat".

Keywords: Sultan Abdulaziz, reforms, Paris, visit.

Copyright **:**Latakia University journal (formerly tishreen) -Syria, The authors retain the copyright under a CC BY-NC-SA 04

[1] **Postgraduate student (PhD) - Modern and contemporary specialization- Department of History- collage of Arts and Humanities- Lattakia University(formerly tishreen) - Latakia- Syria.**
Dalia. shahoud@ tishreen.edu.sy.

[2]**Professor- Department of History- collage of Arts and Humanities- Latakia University(formerly tishreen) - Lattakia- Syria. Aiman612@hotmail.com.**

[3]**Doctor - Department of History- collage of Arts and Humanities- Latakia University(formerly tishreen) - Lattakia- Syria. Wissamayach80@gmail.com.**

وفد السلطان عبد العزيز (1866-1876)م إلى الغرب الأوروبي عام 1867م.

داليا شحّود[4]

أ.د. أيمن صلاّط[5]

د. وسام عياش[6]

(تاريخ الإيداع 26 / 5 / 2025. قُبِل للنشر في 5 / 8 / 2025)

□ ملخّص □

لطالما تميّز حكم سلاطين آل عثمان بالقوة والعظمة، واتخاذ ألقاب تدلّ على العالمية، وتبعاً لذلك لم يبادر أيّ سلطان عثماني بالانفتاح السياسي على الغرب الأوروبي، أو القيام بزيارة أو سياحة بشكل شخصي، وظلّ الأمر هكذا حتى جاء السلطان عبد العزيز وكسر هذا المبدأ الذي دام قروناً قبل صعوده إلى سدة الحكم عام 1866م، وعلى هذا الأساس فإن الوفد الرسمي الذي قام به السلطان عبد العزيز إلى ملوك أوروبا عام 1867م، أحدثَ ضجّة على الصعيدين العثماني والأوروبي، فكان نقطة تحوّل بدأت من التغير في الفكر العثماني المتشدد تجاه الغرب "الكافر"، والانفتاح على الآخر.

إن السبب المباشر لهذه الزيارة كانت بناءً على دعوة من امبراطور فرنسا نابليون الثالث. إذ كانت الدولة العثمانية تعاني من الانحطاط والفساد في القرن التاسع عشر الميلادي، وقد جاءت تلك الإصلاحات ضمن مجالات مختلفة اقتصادية ، اجتماعية ،سياسية، إدارية وغير ذلك. ومن الجدير بالذكر أن هذه الزيارة الرسمية كانت بمثابة جولة شبه شاملة لأهمّ العواصم الأوروبية (باريس، لندن، فيينا). لقد تركت آثاراً مهمة في ميدان الإصلاحات أو "التنظيمات ".

الكلمات المفتاحية: السلطان عبد العزيز، الإصلاحات، باريس، زيارة

حقوق النشر : مجلة جامعة اللاذقية (تشرين سابقاً)- سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

[4]طالبة دكتوراه – قسم التاريخ – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة- جامعة اللاذقية(تشرين سابقاً) – اللاذقية- سورية. Dalia. shahoud@ tishreen.edu.sy .

[5] أستاذ – قسم التاريخ- كليّة الآداب و العلوم الإنسانيّة- جامعة اللاذقية(تشرين سابقاً)- اللاذقية- سورية. .Aiman612@hotmail.com

[6]مدرس – قسم التاريخ- كليّة الآداب و العلوم الإنسانيّة- جامعة اللاذقية(تشرين سابقاً)- اللاذقية- سورية..Wissamayach80@gmail.com

مقدمة:

إنّ وفد السلطان عبد العزيز (1866–1876)م إلى الغرب الأوروبي يعدّ نقطة فارقة في التاريخ العثماني من جهة والعلاقات العثمانية – الأوروبية من جهة أخرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، فقد أحدث تغير في المسار الذي كان يتبعه آل عثمان مع ملوك أوروبا.

ولتوضيح ذلك لابدّ من النظر إلى أسلوب التعامل الذي كان قائماً قبل عهد السلطان عبد العزيز، إذ كان السلطان العثماني يرفض الذهاب للقاء أيّ حاكم أوروبي، ويعود السبب في ذلك إلى الأيديولوجية العثمانية آنذاك التي تمسّكت بفكرة عظمة السلطان وهيبته وقوة سطوته.

بحيث لا يوجد أيّ حاكم آخر يمكن أن يضاهي نفوذه العالمي، الأمر الذي يقضي بضرورة الخضوع له ومجيء حكام أوروبا إليه طالبين المساعدة منه أو إعلان الطاعة له، وعلى أية حال كان هذا سائداً وبشدة في القرن السادس عشر الميلادي.

كما يجب الأخذ بالحسبان أنّ آل عثمان نظروا إلى الأوروبيين نظرة احتقار وتصغير، ومن هذا المنطلق أطلقوا عليهم تسمية "الكفار". أما في عهد السلطان عبد العزيز (1866–1876)م فقد حدث العكس، وهذا يعدّ بحدّ ذاته شكلاً جديداً من التواصل مع الغرب الأوروبي، ومن زاوية أخرى كانت الدولة العثمانية تعيش ضعفاً على الصعيد الداخلي والخارجي، خاصة بعد هزائمها العسكرية، فرأى المصلحون أهمية الاقتباس من النُظم الغربية، كونها السبيل للنجاة والصعود الدولي وإعادة القوة لكيان العثمانيين، فضلاً عن استئصال الفساد بمختلف المجالات.

وعلى ضوء هذه الخلفية التي تفسر أوضاع الدولة العثمانية انطلق السلطان عبد العزيز بشخصيته المرنة والمنفتحة، ليقوم بزيارة الأولى من نوعها إلى العواصم الأوروبية، وبذلك يفتح أفق جديد أمام الحكومة العثمانية لتنظر عن كثب ما حلّ بالحضارة الأوروبية من تقدم وازدهار وتطور تقني، وتماشياً مع ما تمّ ذكره فإن زيارة السلطان عبد العزيز لباريس ولندن وغيرهما، شكّل الفرصة التي من شأنها المساهمة في دفع عملية الإصلاحات إلى الأمام.

كانت أحداث هذه الزيارة الرسمية إلى القصور الأوروبية والمعالم السياحية المهمة هناك ذات طابع دبلوماسي. وقد تنافس ملوك أوروبا في حسن استضافة الوفد العثماني، وكانت الأجواء إيجابية بشكل عام. كشف وفد السلطان عبد العزيز 1867م، عند عودته إلى استانبول مدى ضعف الهيكلية الإدارية والاقتصادية العثمانية، لتبدأ جهود المصلحين ومساعيهم الكثيرة.

إشكالية البحث:

يطرح البحث عدة تساؤلات ويحاول الإجابة عن أبرزها:

_ لماذا يعدّ وفد السلطان عبد العزيز إلى الغرب الأوروبي 1867م حَدثاً جديداً على الصعيدين العثماني و الأوروبي ؟

_ ما هي أسباب هذه الزيارة الدبلوماسية ؟ وما هي أهم نتائجها بالنسبة إلى الحكومة العثمانية ؟

_ ما هي التغيرات التي طرأت على الدولة العثمانية بعد عودة السلطان إلى استانبول ؟

أهميّة البحث :

تأتي أهمية البحث من كونه يدرس مرحلة مهمة من تاريخ سلاطين آل عثمان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، حيث كانت الدولة العثمانية تبحث عن منقذ لها من ضعفها وخسائرها العسكرية.

كما يعرض البحث حدَث دبلوماسي مهم، جرى للمرة الأولى وهو قيام السلطان عبد العزيز بنفسه بزيارة إلى أوروبا، بعد قبوله دعوة الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث، مما أثار ضجة على المستوى السياسي والإعلامي.

كما تتبين أهمية البحث مما يقدمه من تفاصيل ومعلومات ترتبط بفترة الإصلاحات، وتوجّه رجال الإصلاح للاقتباس من الغرب من جهة وتشجيع السلطان على هذه الخطوة الفريدة من نوعها من جهة أخرى، المتمثلة باطّلاعه بشكل شخصي على عوامل تطور الحضارة الأوروبية، وأسباب تفوقها سياسياً، فنياً، اقتصادياً وعسكرياً.

سبب اختيار البحث:

يعود سبب اختيار البحث إلى قلة الدراسات التي تطرّق إلى زيارة السلطان عبد العزيز (1866–1876)م إلى العواصم الأوروبية بشكل موسع من ناحية دبلوماسية، إذ أن أغلب الدراسات تتناول تحرّكات الوفد العثماني 1867م من دون الإشارة إلى تفاصيل وخلفية هذه الزيارة الرسمية المميزة، بل إن بعضها يمرّ عليها مرور الكرام. فجاء البحث ليلقي الضوء على شكل الاحتكاك مع الغرب الأوروبي وأهميته، و دوافعه، وآثاره على الإصلاحات في الدولة العثمانية.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى إيضاح عدة قضايا وهي:

_ التعريف بشخصية السلطان عبد العزيز، وانفتاحه الذي جعله يتقبّل فكرة القيام بزيارة رسمية إلى باريس، على عكس السلاطين الذين سبقوه. وهذا يمثّل بحدّ ذاته دوراً جديداً من حكم آل عثمان.

_ تناول جانب دبلوماسي من تاريخ الدولة العثمانية، بمعنى أن البحث يختصّ بالوفد السلطاني الذي اتخذ صفة دبلوماسية، من شأنه أن يعزز العلاقات والروابط الدولية مع حكام أوروبا.

_دراسة الإصلاحات التي جرت في عهد السلطان عبد العزيز (1866–1876)م، بعد أن رأى بنفسه المستوى العالي من الرقي والتقدم الحضاري وبأنماط أوروبية مختلفة (فرنسا، بريطانيا، النمسا، بروسيا).

منهجية البحث:

اعتمد البحث على المنهج التاريخي العلمي الذي يقوم على جمع المادة العلمية من مصادر ومراجع (عربية، مترجمة، أجنبية)، وتحليل وفهم المعلومات ومن ثم توظيفها بالشكل المناسب، واستخلاص النتائج. إضافة إلى المنهج الوصفي الذي تناول مجريات الأحداث التاريخية بشكل دقيق و واضح.

النتائج والمناقشة:

أولاً: شخصية السلطان عبد العزيز وأهمية انفتاحه على الغرب الأوروبي:

تميّز السلطان عبد العزيز[7] بصفات عدّة جعلت منه شخصية مرنة ومنفتحة، تمتّع بمقدرة عالية على الخطابة وكان منفتح الذهن، سريع البديهة، أما هواياته فقد مال إلى الجانب الفنّي حيناً والرياضي حيناً أخرى. وتجلّى ذلك باهتمامه بركوب الخيل ورماية النبال، والصيد، المصارعة، السباحة، والتجديف، والألعاب الرياضية المتنوعة[8].

[7] السلطان عبد العزيز: (1830- 1876) عمّ السلطان عبد الحميد الثاني، أهم إنجازاته: تطوير الأسطول العثماني، إنشاء المدرسة العسكرية والمدفعية وغير ذلك من الأعمال التي هدَفت إلى تطوير وتحديث الجيش العثماني، تذكر الروايات أنّه مات انتحاراً. مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة: محمد حرب، دار القلم، دمشق، ط3، 1991، ص 277.

[8] أرمغان، مصطفى، التاريخ السري للإمبراطورية العثمانية جوانب غير معروفة من حياة سلاطين بني عثمان، ترجمة: مصطفى حمزة، ثقافة للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2014، ص187.

فضلاً عن دعم هذا الجانب من حياته بالقواعد الصحية الغذائية، فَعُرِفَ بنبذه للتبغ، أما فيما يخصّ الجانب الفنّي، فانشغل بالموسيقى الصوفية لاسيما العزف على الناي، كما كان واسع الاطّلاع على الآلات الشرقية والغربية، وأبدع في تأليف الألحان، ومن الجدير بالذكر أنّه أوّل سلطان قدّم لحناً غربياً، كما كان يعزف على البيانو والعود[9].

ومن هنا يتبيّن أن حضارة الغرب الأوروبي قد شدّت انتباه السلطان عبد العزيز وأثارت ميوله وإعجابه، وبالمقابل فإن الشخصيات الفذّة الأوروبية قد تفاعلت معه ومع انفتاحه الفكري والحضاري، بدليل أن الأوركسترا الملكية في لندن عزفت ألحانه الغربية أثناء تواجده هناك، وفي هذا الصدد فقد كان على صلة مع الشخصيات الفنية في أوروبا، وتميزت علاقاته مع هؤلاء بالودّ والصداقة والتعاون كالمشاركة في إنشاء الأوبرا وغير ذلك من النشاطات[10].

أما موهبة الرسم لدى السلطان عبد العزيز فكانت بارزة أيضاً، وعلى هذا الصعيد فقد امتدح الإنكليز أعماله في هذا المضمار من خلال المقالات الفنية التي نُشرَت في الصحف والمجلات الإنكليزية، ودعماً من السلطان لهذا الجانب الفني فقد كان يرسل من يمتلك القدرة على الرسم بإتقان إلى أوروبا لصقل موهبته والاستفادة من التعليم الأوروبي. ولابدّ من الإشارة إلى ظهور مدى الأثر الفعّال الناتج عن الاحتكاك الأوروبي _العثماني من خلال وجود لوحات لرسّامين أوروبيين في قصر دولما باغجه[11]، وكان السلطان قد اقتناها شخصياً من أوروبا[12].

أحبَّ السلطان عبد العزيز السفر والاستكشاف، فعزز أسطول دولته، مستعيناً بالقدرات البريطانية التي أُعجبت بالتصاميم التي أشرف عليها السلطان وأكمل مخططاتها الهندسية[13].

خرج السلطان عبد العزيز عن المألوف مقارنةً ببقية سلاطين آل عثمان، من حيث الانفتاح على الغرب الأوروبي فكان السلطان العثماني الأول الذي يبادر بزيارة إلى مختلف الدول الأوروبية (فرنسا، بريطانيا، بلجيكا، بروسيا، النمسا) عام 1867م، والخليفة الإسلامي الذي يُسْتَقبَل بحفاوة من قبل العالم المسيحي[14].

وتكمن أهمية انفتاحه على الغرب الأوروبي من ناحيتين، الأولى إنشاء علاقات داعمة مع حكام أوروبا، وتعزيز الاتصال الدبلوماسي معهم، والتعرّف على الحضارة الأوروبية بالمجمل التي تميزت بمستوى عالي من الرّقي والتقدّم والازدهار. الثانية فتح آفاق جديدة في مجال الإصلاحات، واقتباس الأسس والمعايير الأوروبية، ودراستها على مختلف الأصعدة السياسية، الحضارية، والاقتصادية[15]. ويبدو أن هذه الزيارة إلى أوروبا كانت إحدى الأسباب التي دفعت السلطان عبد العزيز إلى التوجه البذخ والإسراف المالي. مع الأخذ بعين الاعتبار أن الدولة العثمانية كانت تعاني من مشكلات واضطرابات داخلية وخارجية على الصعيد الدولي والسياسي[16].

إنّ الانفتاح على الغرب الأوروبي شكّل بحدّ ذاته نقطة تحوّل في السياسة العثمانية. والسبب في ذلك أنّ السلاطين العثمانيين قبل حكم السلطان عبد العزيز ولقرون سابقة كانوا يمتنعون عن المبادرة بزيارات رسمية إلى البلاط الأوروبي، متمسكين بعدّة مبادئ وأفكار تتمحور حول عظمة دولتهم العالمية، وتفوقها على الغرب "الكافر"، وبناءً على ذلك يتبيّن

[9] أرمغان، مصطفى، المرجع نفسه، ص 189.
[10]]أرمغان، مصطفى، المرجع نفسه، ص 190.
[11] قصر دولما باغجه: أقامه السلطان عبد المجيد عام 1853م، كانت حديقته ممتلئة بماء البحر فسُمّي القصر بالحديقة الممتلئة. المصري، حسين، معجم الدولة العثمانية، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2004، ص 61.
[12] أرمغان، مصطفى، التاريخ السري للإمبراطورية العثمانية، ص 192.
[13] أرمغان، مصطفى، المرجع نفسه، ص 195.
[14] كولن، صالح، سلاطين الدولة العثمانية، دار النيل، القاهرة، 2014، ص297.
[15]Findley, C, Bureaucratic reform in the Ottoman Empire the sublime porte 1789-1922, princeton university press, New Jersey, 1980, 156-157.
[16] عامر، محمود، تاريخ الدولة العثمانية، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 2004، ص 312- 313.

أنه كان هناك نظرة احتقار للأوروبيين، وبلادهم التي تمثّل "دار الحرب" حسب النظرة العثمانية القائمة على الشريعة الإسلامية[17].

نظراً لذلك لم يسبق أن قام السلاطين السابقون بأيّ حركة دبلوماسية ترأسها الشخصيات السياسية الفذّة، إذ اقتصر الأمر على إرسال سفراء، أو بعثات عثمانية لفترة قصيرة، بل إنها كانت تحمل رسائل شفوية غالباً، وإنّ تلك البعثات القصيرة والرسائل الشفوية لم تترك أثر قوي يُذكر في تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين الباب العالي و أوروبا، على الرغم من أن تاريخ الدولة العثمانية حافل بالمعاهدات والاتفاقيات مع مختلف الدول، إلّا أنّ الطابع الأول الذي يميزها هو الطابع العسكري، وبالفعل كانت متفوقة في المجال الحربي على اعتبار أن أصول آل عثمان من قبائل محاربة وليس لها علاقة في الشأن الدبلوماسي[18].

وعلى هذا الحال فقد تكوّن انطباع لدى الغرب الأوروبي بأنّ سلاطين الدولة العثمانية ورجالهم أشدّاء، ولا سبيل لمجاراتهم في القتال، لاسيما في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي، عندما كانت الدولة في عزّ قوتها واتساعها، لكن هذه الصورة عن العثمانيين لم تتبدّلْ إنّما بقيت النظرة الأوروبية لهؤلاء مليئة بالحذر والخوف أحياناً، ونتيجة لذلك سادت مصطلحات تدلّ على هذا الأمر، على سبيل المثال " التركي المرعب"، و "المسلم المتوحش"[19].

وقد جاء وفد السلطان عبد العزيز إلى أوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي ليعزز الصلات و يقوي الاحتكاك مع الحكام الأوروبيين أكثر من السابق –بظروف مختلفة عاشتها الدولة العثمانية في عهده– وبمبادرة شخصية اختلفت عن السلاطين السابقين، وبذلك سمح بنموّ الدبلوماسية العثمانية تجاه الدول المجاورة، فكان وفده الرسمي قد أزال كل التصورات وحتى التخيلات والإشاعات التي شوّهت شعبه، والتي كانت تُبثّ من الأعداء أيضاً لاسيما العدو الروسي، بمعنى آخر أنّ هذا الوفد استطاع نقل صورة إيجابية جديدة عن العثمانيين[20].

من الجدير بالذكر أيضاً أنّ الأفكار التي تمسّك بها العثمانيين سابقاً رافقها شعور بالتعالي والتفاخر والأفضلية على الآخر، بالإضافة إلى فهم الشؤون الدبلوماسية بشكل سطحي جدّاً، فإذا سافر أحدهم خارجاً ثم عاد إلى استانبول بعد مدّة وجيزة، فإنّه لا يُقدّم إلّا ملاحظات لا قيمة لها، كوصف طريقة الاحتفالات الفخمة التي أُقيمت. من زاوية أخرى فلم يكنْ هناك معرفة مُمكّنة باللغات الأوروبية، مما ساهم في ضعف التواصل وسوء الفهم بين الطرفين الأوروبي والعثماني. لكن ابتداءً من نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وبداية التاسع عشر الميلادي بدى التحرر من القيود الفكرية، وإدراك أهمية الانفتاح على الحضارة الأوروبية، وترك الانعزال والتقوقع. وكان الدافع آنذاك تحسين أوضاع الدولة العثمانية وإلحاقها بالتقدم والتطور على المستوى الدولي[21]، والاطلاع على آخر المستجدات في الساحة الأوروبية، والاستقاء منها من خلال الإصلاحات. أما بالنسبة إلى وفد السلطان عبد العزيز فقد عاد محمّلاً بأفكار غربية، وعلى الأخصّ كبار المصلحين من أصحاب الفكر العميق والرؤية المستقبلية[22].

---

[17]Yurdusev, Nuri, Ottoman Diplomaey conventional or un conventional? Published by Palgrave Macmillan, 2004, p6-7.

[18] بون، أتفيانو، سراي السلطان (1604 – 1608) ترجمة، زيد الرواضية، مشروع كلمة، أبو ظبي، 2014، ص 54.

[19] كالين، ابراهيم، مقدمة إلى تاريخنا والآخر وما وراء العلاقات بين الإسلام والغرب، ترجمة: أنس يلماز، مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت، 2021، ص 181، 190.

[20] صائب بك، أحمد، وقعة السلطان عبد العزيز، مطبعة هندية، مصر، 1901، ص 48.

[21] زغلول باشا، أحمد فتحي، من أمير إلى سلطان- ترجمة الخطاب الذي رفعه الأمير مصطفى فاضل باشا إلى صاحب الجلالة السلطان عبد العزيز 1866، تصحيح: توفيق الرافعي، المكتبة التجارية، مصر، 1866، ص 13-14.

[22] دوسون، مرادجه، دوسون، مرادجه، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية في عهد مرادجه دوسون أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1942 ، ص 230.

ثانياً: وفد السلطان عبد العزيز إلى الغرب الأوروبي 1867م:

تنوعت الدوافع التي جعلت السلطان عبد العزيز يقرر القيام بزيارة رسمية ذات طابع دبلوماسي إلى الدول الأوروبية ابتداءً من فرنسا، وهي كالآتي:

_ الأوضاع السيئة التي آلت إليها الدولة العثمانية، لاسيما على الصعيد السياسي، فكثرة الثورات والاضطرابات الداخلية قد ساهمت في زيادة التدخل الأجنبي في الشؤون العثمانية.

_كانت الدولة العثمانية بحاجة إلى استعادة هيبتها والحصول على موقع دولي ممتاز بين الدول الأخرى.

_إنّ ضعف موقف الدولة العثمانية سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، قد دفع السلطان عبد العزيز إلى التفكير بضرورة كسب علاقات جيدة مع الدول العظمى.

_لفت انتباه الدول الأوروبية –التي لطالما ضغطت على الباب العالي من أجل إجراء الإصلاحات– إلى مساعي العثمانيين وجهودهم في الإصلاح وتحسين أحوال الرعايا.

_ الاطّلاع على الإنجازات الحضارية الأوروبية في مختلف الميادين، واقتباس الخطوات الفعّالة لمواكبة التقدم الحضاري.

_ جاء الوفد تلبيةً لدعوة الإمبراطور نابليون الثالث[23]، وكانت الغاية توثيق الصداقة القديمة مع فرنسا، ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار أن هذه الخطوة بمثابة السبب المباشر لتشجيع السلطان بالقدوم إلى فرنسا بشكل خاص ومن ثم بقية الدول الأوروبية بشكل عام[24].

تمتّع السلطان عبد العزيز (1866–1876) بشخصيّة جذابة أدّت إلى انعاش العلاقات العثمانيّة – الأوروبيّة في عهده و بكل ليونة و انفتاح قبِلَ دعوة الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث و الملكة البريطانيّة فكتوريا[25] لزيارتهما في إطار زيارة رسميّة دبلوماسيّة، و بذلك يكون السلطان عبد العزيز أوّل سلطان عثماني يزور دولة أوروبيّة بنفسه، و إن دلّت زيارته على شيء فإنّها تدلّ على كسر القيود العثمانيّة الصارمة و القاسيّة التي سادت طوال القرون الماضية، بمعنى أنّ الدبلوماسيّة العثمانيّة على وجه التحديد قد اتّخذت مساراً مغايراً عمّا سبق، و لابدّ أنّه مسار يشبه البروتوكولات الأوروبيّة.

انطلق الوفد العثماني في 21 حزيران 1867م إلى فرنسا بدايةً، و لم تقتصر هذه الزيارة الرسميّة على باريس فقط إنّما شملت أيضاً لندن، و من ثمّ بروكسل [26] و فيينا و غيرها، لتصبح الجولة الأكثر تأثيراً في التاريخ الدبلوماسي العثماني، و قد استغرقت 47 يوماً[27].

[23] نابليون الثالث:Napoleon III (1808-1873) رئيس الجمهورية الفرنسية الثانية (1848-1852) ، و امبراطور فرنسا (1852-1870)، هُزم في الحرب الفرنسية- البروسية فخلع عن العرش و قضى بقية حياته في انكلترا. البعلبكي، منير، معجم أعلام المورد، دار العلم للملايين، بيروت، 1992، ص450.

[24] صانب بك، أحمد، وقعة السلطان عبد العزيز، مصدر سابق، ص 47- 49. صلاط، أيمن، حرب الاستقلال اليونانية (الثورة اليونانية) 1821-1832، مجلة جامعة اللاذقية، سوريا، مج 46، العدد 3، 2024، ص 66.

[25] أوغستا فكتوريا:Auguste Viktoria (1858-1921) هي أكبر أبناء الباقين على قيد الحياة لفريدريك الثامن دوق مقاطعة شليزفيج-هولشتاين، تزوجت من فيلهلم الثاني في شباط 1881، أيّد بسمارك هذا الزواج لأنه سيضع حدّاً لصراع بروسيا مع والد أوغستا فكتوريا.

WWW. ar.m /Wikipedia. Org/wiki آخر تعديل بتاريخ 2 آب 2022، التوقيت 21:27,

[26] بروكسل: Bruxelles عاصمة بلجيكا، يتحدّث السكان فيها اللّغتين الفرنسيّة و الهولنديّة، حظيت بأهميّة سياسيّة منذ نهاية الحرب العالمية الثانيّة. WWW. Ar.m. wikipidia. Org/wiki/ آخر تعديل بتاريخ 31 آذار 2023، التوقيت 11:46.

[27] كالين، ابراهيم، مقدّمة إلى تاريخنا و الآخر، مرجع سابق، ص 355- 356.

كان من أبرز الشخصيات التي انضمت لمرافقة السلطان عبد العزيز وليّ العهد الأمير مراد أفندي[28]، و الأمير عبد الحميد الثاني[29] ، و وزير الخارجية فؤاد باشا[30]، بالإضافة إلى شيخ الإسلام و آخرين، و بالطبع رئيس مترجمي الديوان، و السفير الفرنسي في استانبول. وكان من ضمن المدعوين أيضاً خديوي مصر إسماعيل باشا[31] الذي أبحر من الاسكندرية على سفينة المحروسة، ليكون بباريس حين قدوم جلالة السلطان عبد العزيز إليها[32].

من زاوية أخرى تخصّ المراسم فقد بقيت البروتوكولات و الطقوس العثمانيّة على حالها خاصة تلك التي تُعنى بما يجري داخل الباب العالي، على أيّة حال أبحرت السفن العثمانيّة و معها سفن أخرى حربيّة، و يبدو أنّها كانت للاستعراض أكثر من أيّ أمر آخر، و رافقتها سفن فرنسيّة أيضاً. وصل السلطان عبد العزيز في 29 حزيران من نفس العام إلى مرسيليا [33]، ثمّ توقّف الوفد العثماني عند محطّة قطار ليون، و في تلك الأثناء كان الاستقبال الفرنسي هائلاً على الصعيد الشعبي و الملكي، و مليئاً بالفرح و الحماس، إذ ركب السلطان عبد العزيز عربة مفتوحة مع الإمبراطور نابليون لثالث متجهين إلى القصر[34].

هناك أعدّ الأخير حفلة عشاء على شرف ضيفه السلطان العثماني، و في أثناء ذلك دارت الأحاديث عن أوضاع البلدين، لكن للأسف لم تنعمْ بعض الولايات العثمانيّة بالاستقرار السياسي آنذاك، فسأل الإمبراطور نابليون الثالث وزير الخارجيّة فؤاد باشا:

"يا باشا لو أردتم بيع جزيرة كريت فكم تريدون ثمناً لها ؟ "

فردّ فؤاد باشا بنفس أسلوب الإمبراطور الذي شابه مزاح يخفي وراءه نوايا و مطامع فرنسيّة:

"يا جلالة الإمبراطور، نحن لا نريد الربح، فقط نريد نفس الثمن الذي دفعناه".

كانت الدولة العثمانيّة قد استنزفت الكثير من جنودها في سبيل حكم جزيرة كريت، و ضحّت بأرواحهم و هذا ما كان يقصده فؤاد باشا الذي أبرز حنكته في كل اجتماع و لقاء دبلوماسي[35].

خُصص قصر الإليزيه[36] Elysee لإقامة السلطان عبد العزيز، و قد تلقّت دعوة من الإمبراطور نابليون الثالث لافتتاح معرض صناعي جديد، فلبّى السلطان الدعوة و بدأ مع أعضاء وفده بزيارة المعالم الفرنسيّة المتحضّرة، كالأوبرا و المصانع الحديثة التي قدّمت ماكينات خياطة جديدة و غيرها. و لابدّ من الإشارة إلى أهميّة تدوين تلك المشاهدات

[28] مراد أفندي: ولدعام 1840م، حكم 93 يوماً فقط، بسبب مرضه العقلي، وكان على صلة وثيقة بالإنكليز، توفّي عام 1904م. مذكرات السلطان عبد الحميد، مصدر سابق، ص 286.

[29] السلطان عبد الحميد الثاني: ولد عام 1842م، ابن السلطان عبد المجيد، اعتلى العرش عام 1876م وكانت الدولة غارقة بمشكلاتها ومعاناتها، اتبع سياسة ضرب مصالح الدول الأوروبية بعضها ببعض. خلِعَ عام 1909م من قبل جمعية الاتحاد والترقي. مذكرات السلطان عبد الحميد، المصدر نفسه، ص 17- 20.

[30] فؤاد باشا: (1815-1869) مصلح عثماني، من كبار رجال الدولة، شغل منصب وزير الخارجيّة، ثمّ تولّى الصدارة العظمى مرّتين (1861-1862) و (1863-1867). البعلبكي، منير، معجم أعلام المورد، مرجع سابق، ص 329.

[31] إسماعيل باشا: (1830-1895) خامس حكام مصر، ازدهرت البلاد في عهده، قام بالكثير من الإنجازات وعلى مختلف الأصعدة الإدارية، العمرانية، الاقتصادية، التعليمية. توفي في استانبول.

WWW.Ar.m. Wikipedia.org/ w/index آخر تعديل بتاريخ 27 كانون الأول 2024، التوقيت 13:28.

[32] المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل، بيروت، ط1، د.ت، ص 298.

[33]مرسيليا: Marseille ثاني أكبر مدينة فرنسيّة، تقع على الساحل الجنوبي لفرنسا المطل على البحر المتوسط.

www. ar.m. /wikipidia. Org/wiki آخر تعديل بتاريخ 15 آذار 2024، التوقيت 01:05.

[34] أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان سلمان، مج2، منشورات مؤسسة فيصل، استانبول، 1988، ص 71.

[35] العوض، محمد، ومضات عثمانيّة، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، 2018، ص 134.

[36] قصر الإليزيه : Elysee يعود تاريخ بناءه إلى القرن 18، يقع في باريس، كان مقرّاً للسفراء فوق العادة في عهد لويس الخامس عشر.

www. ar.m. wikipidia. Org/wiki/ آخر تعديل بتاريخ 25 كانون الأوّل 2022، التوقيت 05:39.

بالنسبة للوفد العثماني إذ قام أحد رجال السلطان بوضع ملاحظات قيّمة، يصف فيها الأماكن بشكل مفصّل، ويتعمّق بنظرة تحليلية عن الأوضاع السائدة هناك وأسلوب الحياة، و على أيّة حال ظهرت الفروقات بين المجتمع العثماني و المجتمع الأوروبي، في كثير من التفاصيل، على سبيل المثال الملابس و الأزياء فقد نظرَ كلّ طرف للآخر نظرة فضول و إعجاب من المظهر الخارجي لكلٍّ منهما، و في هذا الصدد تميّز الزيّ العثماني بالفخامة و الأناقة، أمّا بالنسبة لاجتماع الرجال مع النساء في شوارع باريس فمازالت تثير دهشة العثمانيين، من جهة أخرى أعجب رجال السلطان العثماني بالشوارع و تنظيمها و إنارتها، و كانت محصّلة هذه الزيارة التي استغرقت أحد عشر يوماً الكثير من المقارنات بين باريس و استانبول، و نتيجة لذلك فقد أدرك العثمانيون أن دولتهم متأخّرة و تعاني من الانهيار. تناقلت الصحف الفرنسيّة أصداء زيارة السلطان عبد العزيز الرسميّة، بكل إيجابيّة و قد عبّرت عن هذا الحدث الدبلوماسي بأسلوبٍ لا يخلو من مشاعر الصداقة القويّة و المحبّة لهذا السلطان الذي تكرّم بقدومه، فتذكر :

"أخذ السلطان العثماني قلوب الباريسيين و ارتحل"[37].

كان من نتائج هذه الزيارة على الصعيد العثماني، انهيار معنويات كبار رجال الدولة العثمانيّة، و ذلك لسببين الأوّل، إجراء المقارنات مع دولة أوروبيّة مزدهرة و متفوّقة، و الثاني مشاهدة قطعة عسكريّة جزائريّة تخدم في القصر[38]، و قد حزّ بنفس السلطان وجودهم في فرنسا بعد أن كانت الجزائر تابعة للدولة العثمانية أيام خير الدين بربروسا [39].

لم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، بل رأى السلطان و مَن معه اختراع جديد عبارة عن آلة للرياضة و التسلية معاً، تقيس قوّة العضلات من خلال أرقام بعد ضربها، تشبه الملاكمة في أيامنا و مكتوب عليها "الرأس العثماني"، فأمر السلطان عبد العزيز أحد ضباطه الأشداء بتجربة الآلة بعد أن أخفى انزعاجه مما رآه، و قال له: "هيّا أرهم قوّة الذراع العثماني !"[40].

فلم تصمد الآلة بسبب ضربة قاضية من الضابط، فاندهش الجميع، و قال رئيس الضباط الفرنسي تعبيراً عن اعتذاره لهذه الإهانة و محاولة منه للمحافظة على الودّ بين الطرفين: "هذه ليست الرأس العثماني، لابدّ أنّها رأس أوروبا لتنهار هكذا في ضربة واحدة"[41].

التقى السلطان عبد العزيز بوجوه جديدة حيث تعرّف على الإمبراطورة أوجيني[42] Eugenie و القيصر الكسندر الثاني [43] (1855– 1881) Alexander IIفي باريس[44]. و بعد ذلك ودّع الإمبراطور نابليون الثالث الوفد العثماني في 10 تموز ليكمل السلطان عبد العزيز الشقّ الثاني من زيارته الرسميّة متّجهاً إلى لندن حيث رافق الأسطول

[37] كالين، ابراهيم، مقدّمة إلى تاريخنا و الآخر، مرجع سابق، ص 357.

[38] كالين، ابراهيم، مقدّمة إلى تاريخنا و الآخر، مرجع سابق، ص 358.

[39] خير الدين بربروسا: Barba Rossa (1546 – 1470) أحد قراصنة اليونان، تميز بلحية صهباء، تولى مع أخيه عمليات بحرية واسعة غرب البحر المتوسط لصالح الدولة العثمانية، أعطاه السلطان سليمان لقب (قبطان باشا). المصري، حسين، معجم الدولة العثمانية، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2004، ص31.

[40] كالين، ابراهيم، مقدّمة إلى تاريخنا و الآخر، مرجع سابق، ص 358-357.

[41] كالين، ابراهيم، المرجع نفسه، ص 359.

[42] أوجيني: Eugenie (1826-1920) نبيلة إسبانيّة، أدّت دوراً فاعلاً في الحياة السياسيّة الفرنسيّة حتّى بعد وفاة زوجها نابليون الثالث 1873، دافعت عن العقيدة الكاثوليكيّة. البعلبكي، منير، أعلام المورد، مرجع سابق، ص72.

[43] الكسندر الثاني: Alexander II (1881-1818) قيصر روسيا، تميّز عهده بعدّة إصلاحات داخليّة، هزم الجيش العثماني عام 1877. البعلبكي، منير، المرجع نفسه، ص 63.

[44] أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانيّة،مج2، مرجع سابق، ص72.

الانكليزي أسطول الأخير أثناء عبوره بحر المانش [45]، و استقبله الأمير إدوارد السابع [46] Edward VII أحسن استقبال، و أُعدّ قصر بكنغهام [47] لإقامة السلطان.

و مع استمرار بروتوكولات الاستقبال شارك الشعب الانكليزي أيضاً بالترحيب من خلال الهتاف و التصفيق الحار مثله مثل الشعب الفرنسي.

و على غرار جولة السلطان لباريس كانت الجولة في لندن شاملة و متنوّعة لأماكن عسكريّة و أخرى ثقافيّة. فقد زار الوفد العثماني المعارض، المسارح، مصانع السفن، و مجلس العموم، كما قدّم السلطان عبد العزيز واجب العزاء أثناء زيارته لمنزل أسرة بالمرستون[48] الذي كان من أصدقاء رجال الباب العالي و صاحب مواقف داعمه للدولة العثمانيّة ضدّ روسيا.

من زاوية أخرى قضى السلطان عبد العزيز وقتاً ممتعاً برفقة الملكة فكتوريا، فضلاً عن الاحتفالات الكثيرة التي جمعت الطرفين العثماني و البريطاني. ساهمت هذه الزيارة الدبلوماسيّة بزيادة الاقتباس من الغرب بشكل عام و بالانتباه إلى تفاصيل المنشآت الحضاريّة الأوروبيّة بشكل خاص، لقد ظهر عدد من الشبان العثمانيين في تلك الاحتفالات وهؤلاء كانوا قد تعلّموا و عاشوا في أوروبا، و لاحقاً سيعرَفون ب (العثمانيون الجدد) [49] و أمّا على الصعيد الشخصي للسلطان عبد العزيز فقد أبدى اهتمامه و إعجابه بالإنجازات البريطانيّة و في إحدى الاحتفالات التي جمعته مع الملكة فكتوريا عزفت مقطوعة موسيقيّة من تأليفه و كان كثير الاطلاع على موسيقى الغرب[50].

أبدت الملكة فكتوريا تفاعلاً إيجابياً مع الوفد العثماني، حتّى أنّها أرادت تزويج الأمير مراد أفندي لإحدى بناتها نظراً لتمتّع الأخير بحضور جميل و إتقانه للغة الفرنسيّة، لكن السلطان عبد العزيز رفض هذه الفكرة. و هكذا انتهت زيارة لندن، ليتوجّه الوفد العثماني إلى بروكسل في 24 تموز[51] حيث اجتمع السلطان مع الملك ليوبولد الثاني[52] (1865–1909) Leopold II على مائدة الطعام، و لم تقع أحداث تذكر هناك.

و بعد ذلك التقى السلطان مع الملك البروسي فيلهلم الأوّل[53] (1861–1888) Wilhelm I في إحدى المدن القريبة من برلين بتدبير من المستشار بسمارك[54] Bismarck ، الذي أخذ هذه الحركة الدبلوماسيّة العثمانيّة على

---

[45] بحر المانش: هو جزء من المحيط الأطلسي الذي يفصل فرنسا عن بريطانيا، يبلغ طوله حوالي 563كم.

www. ar.m. wikipidia. Org/wiki/ آخر تعديل بتاريخ 20 تموز 2023، التوقيت 09:39.

[46] إدوارد السابع: Edward VII (1841-1910)ابن الملكة فكتوريا و خليفتها، تولّى العرش و هو في الستين من عمره أمّا مرحلة شبابه فكانت بعيدة عن أمور الحكم نظراً لشخصيّته الطائشة. البعلبكي، منير، أعلام المورد، مرجع سابق، ص 51.

[47] قصر بكنغهام: Buckingham يقع في لندن، يعدّ المقرّ الرسمي لملوك بريطانيا و لاستضافة الوفود الخارجيّة و إقامة الاحتفالات الرسميّة.

www. ar.m. wikipidia. Org/wiki/ آخر تعديل بتاريخ 10 أيلول 2023، التوقيت 14:32.

[48] اللورد بالمرستون : Lord Palmerston (1784-1865) سياسي بريطاني من حزب الأحرار، تولّى منصب وزير الخارجيّة و رئيس الوزراء بفترات متفاوتة. أيّد الحركات القوميّة، و كان هدفه الأساسي تحقيق المصالح البريطانيّة. البعلبكي، منير، أعلام المورد، مرجع سابق، ص 92.

[49] العثمانيون الجدد أو الاتحاديّون: هم أعضاء جمعيّة الاتّحاد و التّرقي الذين تولّوا الحكم العثماني بعد إعلان الدستور 1908، و هي امتداد لجمعيّة (تركيا الفتاة). الخراشي، سليمان، كيف سقطت الدولة العثمانيّة، دار القاسم، الرياض، 2002، ص 40.

[50] كالين، ابراهيم، مقدّمة إلى تاريخنا و الآخر، مرجع سابق، ص 272.

[51] كالين، ابراهيم، المرجع نفسه، ص 359. أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانيّة، مرجع سابق، مج2، ص72.

[52] ليوبولد الثاني: Leopold II (1835 -1909) ملك بلجيكا، جعل من بلاده دولة استعماريّة مُتقدّمة صناعيّاً. كانت دولة الكونغو الحرّة تابعة له. البعلبكي، منير، أعلام المورد، مرجع سابق، ص402.

[53] فيلهلم الأوّل: Wilhelm I (1797-1888) نشبت في عهده الحرب الفرنسيّة-البروسيّة و انتهت بتتويجه في قاعة المرايا بقصر فرساي 1871 إمبراطوراً على ألمانيا. البعلبكي، منير، المرجع نفسه، ص496.

[54] أوتو فون بسمارك: Otto Von Bismarck (1815-1898) مستشار و سياسي ألماني بارع، عمل من أجل وحدة ألمانيا عام 1871، لُقّبَ "بالمستشار الحديدي" نظراً لشخصيته القويّة. البعلبكي، منير، المرجع نفسه، ص106.

محمل الجدّ، فأراد أن يستغل وجود السلطان في أوروبا و يلتقي مع الملك البروسي بهدف إعلاء شأن بروسيا و مكانتها الدوليّة، و لابدّ من الإشارة إلى أنّ السلطان لم يضع هذه الزيارة في الحسبان، حتّى أنّه اعتذر عنها مسبقاً أثناء تواجده في باريس. ومن الواضح أن حضور السلطان عبد العزيز في أوروبا بشكل عام قد أثار اهتمام الحكام والملوك تبعاً لتحقيق المآرب السياسية لهؤلاء لاحقاً، وعلى أية حال نظر السلطان العثماني ورجاله نظرة التقدير الشديد للجيش البروسي المتفوّق. و في ختام هذه الزيارة في 7 آب 1867 مرّ الوفد العثماني على فيينا و بودابست و لقِيَ ترحيباً لائقاً. و أخيراً عبر الوفد نهر الدانوب عائداً إلى استانبول[55].

تماشياً مع هذا النشاط الدبلوماسي العثماني، أظهر رجال الباب العالي حنكةً و دهاءً خلال تلك اللقاءات في القصور الأوروبيّة و كان من ألمع الرجال وزير الخارجيّة فؤاد باشا الذي ألمَّ بكلّ الأخبار و الأوضاع السياسيّة، و كان سريع البديهة، ففي إحدى الحفلات التي جمعت وزراء خارجيّة الدول الأوروبيّة بالإضافة إلى السفراء و القناصل تداول بين الجميع سؤال (مَن هي أقوى دولة في العالم ؟)[56]

فانقسمت الأجوبة بين فرنسا و بريطانيا، و عندما جاء دور فؤاد باشا في التكلّم اختار بلاده. مما أثار حالة من الاستغراب و الاعتراض. فردّ قائلاً للسادة الحضور: "لا تستغربوا، الدولة العثمانيّة فعلاً هي الأقوى، إنّها تحمّلت ما لم يتحمله أحد، فطيلة ثلاثمائة عام و أنتم تحاربونها مجتمعين من الخارج، و نحن بأخطائنا من الداخل، و ما زالت قويّة ثابتة"[57].

نتيجة لاندلاع الثورات في الهرسك و الجبل الأسود و غيرها من المناطق، فقد انفتح المجال للسفراء في استانبول بإبداء الرأي و المشورة و التدخّل، و مما زاد الأمر سوءاً مقتل اثنان من السفراء في تلك المناطق بسبب الاضطرابات السياسيّة السائدة التي أدّت في النهاية إلى مزيدٍ من الضعف العثماني و الإطاحة بالسلطان نفسه، وقد تجلّى ذلك في تدخل الدول العظمى في شؤون الدولة العثمانية بشكل واضح على الصعيد الخارجي، إضافة إلى الانقسامات التي حصلت في استانبول على الصعيد الداخلي[58].

ثالثاً: أثر الوفد العثماني على الإصلاحات في الدولة العثمانية:

يقصد بالإصلاحات أو التنظيمات تلك المرحلة التي دخلتها الدولة العثمانية وعلى الأخصّ في القرن التاسع عشر الميلادي، لتصلح الأجهزة العسكرية، الإدارية، المالية والقضائية، والتعليمية وفق النمط الأوروبي[59]. وقد كانت بحاجة ماسّة إلى الإصلاحات نتيجة الانهيار الذي أصابها والخلل والهزائم التي لحقت بها. توسعت حركة المصلحين في عهد السلطان عبد العزيز، بمعنى أنّها شملت مختلف المجالات بعدما كانت محصورة في الجانب العسكري فقط[60].

1- أثر الوفد العثماني على الإصلاحات سياسياً وإدارياً:

عانت الدولة العثمانية من مفاسد ومشكلات عديدة، على سبيل المثال انتشار التعسّف والظلم في الولايات على الأخصّ ولايات البلقان، عدم وجود موظفين من أصحاب الجدارة والكفاءة، صعوبة السيطرة الإدارية على الولايات التي تتميز بتنوّع الأعراق والمذاهب، انتشار الرشوة والطمع بالسلطة[61].

---

[55] أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانيّة، مج2، مرجع سابق، ص 73-74.
[56] العوض، محمد، ومضات عثمانيّة، مرجع سابق، ص 136.
[57] العوض، محمد، ومضات عثمانيّة، مرجع سابق، ص 136- 137.
[58] كولن، صالح، سلاطين الدولة العثمانيّة، مرجع سابق، ص 305.
[59] Kenneth, W, The Ottoman Empire, The Teaching company, America, 2017, P 182-183.
[60] طربين، أحمد، تاريخ المشرق العربي لمعاصر، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ط7، 2001، ص 232.
[61] طربين، أحمد، تاريخ المشرق العربي، مرجع سابق، ص 261.

تميزت الإصلاحات في عام 1868م بالنشاط والإرادة[62]، وكانت فرنسا من أكثر الدول التي كان لها التأثير الفاعل والواضح في هذه المرحلة، ويعود السبب في ذلك إلى العلاقات العثمانية – الفرنسية القديمة، فضلاً عن النفوذ الفرنسي في استانبول الذي أثبت وجوده وتفوقه على بقية الدول الأوروبية، على سبيل المثال دعم الباب العالي أثناء حرب القرم 1854م، وقبول السلطان عبد العزيز النصائح من الخبراء الفرنسيين خاصة وقت الأزمات، وتعرّض الحكومة العثمانية لتهديدات روسية[63].

جرت الكثير من الإصلاحات بعد انتهاء رحلة الوفد العثماني إلى باريس، لندن، فيينا، ففي نيسان 1868م، أُعيد تنظيم مجلس القضاء الأعلى، وتمّ ترتيب النظم العدلية والتعليمية والإدارية، فأُنشئت محكمة عليا قضائية (ديوان الأحكام العدلية)، كما أُنشِئ في نفس العام مجلس شورى الدولة (شواري دولت) على النَسق الفرنسي[64].

اقتبس السلطان عبد العزيز من القانون الفرنسي بعد عودته إلى استانبول ، وفي هذا المضمار صدر (قانون إدارة الولايات العمومية) عام 1871م، وتضمن ما يلي:

1) تحديد مسؤوليات الولاة، و وظائف أصحاب السلطة الإدارية.
2) يقوم الوالي بجولة تفتيشية (ثلاثة شهور في السنة)، للاطّلاع على آخر المستجدات ومراقبة سير الأعمال في ولايته.
3) منع صرف الميزانية المالية المخصصة للولاية بغير حقّ، أو بشكل غير مشروع، لا يتوافق مع الأنظمة.
4) الاهتمام بالجانب التعليمي والثقافي، والجانب الاقتصادي لاسيما الزراعة كالعناية بالأراضي والثروة الحراجية، الصناعة، المواصلات وإنشاء الطرُق والجسور وترميمها، للإسهام في تحقيق التقدم المطلوب.
5) الاهتمام بالجانب الصحّي.
6) النظر في صلاحيات الموظفين الإداريين والمسؤولين الذين تقع على عاتقهم مُهمّة تنفيذ القوانين، وتحقيق الانضباط (كمدير المعارف، مدير الزراعة والتجارة، مدير الأوقاف...) [65].

من أهمّ المؤثرات التي ظهرت بعد قدوم الوفد العثماني عام 1867م إلى أوروبا هي البروتوكولات الدبلوماسيّة الجديدة التي تفاعل معها العثمانيين، ذات الصبغة الأوروبيّة (قدوم الحاكم بنفسه كضيف يحلّ على البلاط الأوروبي)[66].

ساهمت فرنسا في الجانب الإداري من الإصلاحات، و قد اتخذت عدّة اجراءات منها:

- إشراك المسيحيين في دوائر الدولة كافة.
- تطبيق الإصلاحات الإدارية على كل الولايات من دون استثناء.
- تنظيم المحاكم العلنية وفق هيكلية جديدة.
- قبول شهادة المسيحيين بصورة قطعية وعمومية.
- تحسين السجون وأوضاع رجال الأمن.

[62] في هذه الفترة انتعش اقتصاد الدولة العثمانية و ارتفعت مكانتها أكثر بعد افتتاح قناة السويس عام 1869م التي تعدّ من أهمّ المشاريع الاستراتيجية. البودي، مازن، المؤثرات الطبيعية والبشرية في حركة التجارة في المشرق العربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، مجلة جامعة اللاذقية، سوريا، مج 46، العدد 4، 2024، ص 299-300.

[63] لهارد، أنكه، تاريخ الإصلاحات والتنظيمات، مرجع سابق، ص 211.

[64] الصلابي، علي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، د.ن، د.ت، ص663.

[65] طربين، أحمد، المرجع نفسه، ص 265. علي، أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني حياته و أحداث عهده، بيوك جاملجة، استانبول، ط4، 2008، ، ص 27.

[66] أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانيّة،مج2، مرجع سابق، ص71.

• حرية التصرف والاستفادة مما يملكه الأجانب.

• إصلاح وضع الأوقاف.

• تشكيل بلدية في كل مدينة كبيرة[67].

2- أثر الوفد العثماني على الإصلاحات اجتماعياً واقتصادياً:

أرسلت فرنسا مطالب في كانون الثاني من عام 1867م من أجل المساهمة في الإصلاحات وقد رتبت بنوداً وشروطاً تختصّ في مجال التعليم والإدارة والاقتصاد، وتألفت من ستة عشر بنداً، وكانت المطالب كالآتي:

الجانب التعليمي:

• تحسين التعليم، لأنه يعدّ من أهم الشؤون، كما يجب إعطاء التعليم وكوادره الأولوية، وفي هذا السياق يتمّ إدخال المسيحيين في المدارس ضمن التعليم العام، والذي يضم بدوره الفنون، التاريخ والإدارة، والحقوق، فضلاً عن إنشاء مكتبات خاصة وعامة، وجعل التعليم إلزاماً على الجميع.

الجانب الاقتصادي:

• تنظيم قانون التجارة ومحاكمه المختصة.

• تأسيس شركة تأمين.

• جباية الضرائب من دون وساطة.

• إلغاء الالتزامات وتغيير أصول الجباية.

• إلغاء الرسوم الجمركية الداخلية.

• إصلاح المواصلات (طُرُق –جسور..).

• تحقيق استثمار أفضل لمصادر الثروة[68].

يبدو أن الصبغة الفرنسية كانت واضحة المعالم في الإصلاحات، فقد تمّ إنشاء (مدرسة غَلَطَة العثمانية السلطانية) في منطقة غَلَطَة Galata [69] التي ضمت مراكز ومنشآت أجنبية. ساهمت هذه المدرسة برفع المستوى التعليمي وإلغاء التعليم الطائفي، فضلاً عن إعداد شباب ذو كفاءة عالية لتولي مناصب سياسية ودبلوماسية في الباب العالي، واكتسابهم اللغة الفرنسية [70].

على الرغم من المساعي الحثيثة التي بُذِلَت في سبيل الإصلاح، إلّا أنّ الصعوبات كانت تقف بوجه المصلحين العثمانيين أمثال جودت باشا[71]، ومدحت باشا[72] وغيرهما، فالقوانين التي طُبّقت لم تراعِ خصوصية الولايات العثمانية المتنوعة بثقافتها وعاداتها ومذاهبها وخصوصيتها الجغرافيّة، فقد نظر المصلحون نظرة سلبية للمبدأ الذي اعتبر أن

[67] لهارد، أنكه، تاريخ الإصلاحات والتنظيمات في الدولة العثمانية، ترجمة: محمود عامر، دار رسلان، دمشق، 2017، ص 212.

[68] لهارد، أنكه، تاريخ الإصلاحات، مرجع سابق، ص212-213.

[69] غَلَطَة: Galata بلدة عثمانية، في ولاية سلسترة، لواء وارنه على البحر الأسود. موستراس، س، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة: عصام الشحادات، دار ابن حزم، بيروت، 2002، ص 372.

[70] طربين، أحمد، تاريخ المشرق العربي، مرجع سابق، ص 266-267.

[71] جودت باشا: هو أحمد جودت باشا بن اسماعيل بن علي بن أحمد، أمضى شبابه في استقاء العلوم كالفقه وأصوله، والحديث والتفسير وعلم الكلام والمنطق. تدرّج في المناصب الإدارية والسياسية، يُعدّ من أشهر الشخصيات التي أدّت دوراً مهمّاً في تاريخ الإصلاحات. تاريخ جودت، ترجمة: عبد القادر أفندي، مج1، مطبعة جريدة بيروت، بيروت، 1890، ص 6-7.

[72] مدحت باشا: (1822-1885) اسمه أحمد شفيق، مصلح عثماني، كان مُلمّاً باللغات الفرنسية، الفارسية، والعربية، عُيّنَ والياً على نيش عام 1860م، ثم الطونة عام 1864م، وغيرها من الولايات التي ازدهرت على يده، وعُيّن صدراً أعظم عام 1872م. كان معجباً بالحضارة الإنكليزية. مذكرات السلطان عبد الحميد، مصدر سابق، ص 283.

الدولة العثمانية متشابهة بكل مناطقها ومتجانسة، ولهذا كانت المركزية تسبب إحدى المعوقات وتُثير الاضطراب، فضلاً عن صعوبات أخرى تمثّلت بالصراعات الداخلية واختلاف الآراء بين المصلحين والسلطان نفسه[73].

الاستنتاجات و التوصيات:

خَلُصَ البحث إلى عدة استنتاجات بعد تناول شخصية السلطان عبد العزيز (1866–1867)م، و تتبع مجريات زيارته إلى الغرب الأوروبي عام 1867م، وأهم الإصلاحات التي حدثت بعد ذلك:

– ظهرت بوادر انفتاح وتواصل السلطان عبد العزيز مع الغرب الأوروبي منذ البداية، فبعد سنة من استلامه الحكم قام بزيارة إلى فرنسا، وما لبثت بقية الدول أن نادته ليتشرف بزيارة مماثلة إلى عواصمها المتحضرة، وهذا إن دلّ على شيء فيدل على مدى المرونة والليونة التي تميز بها السلطان عبد العزيز على عكس السلاطين الذين سبقوه.

– تمتع السلطان عبد العزيز بشخصية دبلوماسية، متلهّفة لاكتساب معارف جديدة، ولديها حُبّ الاطّلاع، بناءً على ذلك استطاع أن يحقق نجاحاً على صعيد تقوية العلاقات مع الغرب الأوروبي، في وقت كانت فيه الدولة العثمانية بحاجة إلى حليف يدعمها على الساحة الدولية.

– كان وفد السلطان عبد العزيز إلى الغرب الأوروبي 1867م مليء بالمظاهر الدبلوماسية و الاستضافة من قبل حكام أوروبا في الظاهر، ولكن في الباطن كان هدفه خدمة الإصلاحات، بمعنى آخر إن رحلة الوفد العثماني كانت مكملة لاحتياجات الإصلاح في الدولة العثمانية لاسيما الاطلاع على الحضارة الأوروبية عن كثب و الاقتباس منها.

– استطاعت هذه الزيارة العثمانية أن تحقق رؤية دقيقة عن أنماط الحضارة الأوروبية المتقدمة، إذ لم تنحصر في دولة أوروبية واحدة، فقد زار الوفد العثماني فرنسا، بريطانيا، بلجيكا، بروسيا، والنمسا، وهذا يشير بدوره إلى سعة الاطلاع و المشاهدات التي حَظيَ بها السلطان ذات نفسه ورجاله أيضاً.

– لاشكّ أنّ النتائج كانت صادمة بالنسبة للعثمانيين، لاسيما بعد أن رأى السلطان عبد العزيز بعينه التطور الهائل الذي أصاب المدن الأوروبية مقارنة باستانبول والولايات العثمانية. وفي هذه الحالة نال الإحباط من رجال السلطان. لكن على الرغم من ذلك توجّهت الذهنية العثمانية إلى الاستفادة القصوى من التجارب الأوروبية، و الاقتباس منها فجاءت حركة الإصلاحات شاملة للمجالات الاقتصادية، الإدارية، التعليمية، العسكرية في الدولة العثمانية.

– برع ملوك أوروبا في طريقة استقبال الوفد العثماني و الترحيب به، و السبب في ذلك هو إظهار مدى القوة التي وصلت إليها أوروبا، مما جعل الوفد في حالة انبهار، والأهم من ذلك التقرب من السلطان عبد العزيز بهدف تحقيق المصالح السياسية و مدّ النفوذ الأوروبي داخل الدولة العثمانية.

[73] طربين، أحمد، تاريخ المشرق العربي، مرجع سابق، ص 265.

Reference

[1] A. Al -Salabi, the Ottoman Empire is the factors of the rise and the reasons for the fall, without publishing, in Arabic, without date.
[2] A. Bonn, Saray Al-Sultan (1604-1608), translation: Zaid Al-Rawada, Word Project, in Arabic, Abu Dhabi, 2014.
[3] A. Lehard, the history of reforms and organizations in the Ottoman Empire, translated by: Mahmoud Amer, Dar Raslan, in Arabic, Damascus, 2017.
[4] A. Saeb Bey, Sultan Abdul Aziz, Indian Press, in Arabic, Egypt, 1901.
[5] A. Sallat, Greek war of independence (Greek revolution) 1821-1832 ،Lattakia university journal, in Arabic, Syria, Vol 46, No 3, 2024.
[6] A. Tarbin, History of the Contemporary Arab East, Damascus University, in Arabic, Damascus, Edition 7, 2001.
[7] A. Zaghloul Pasha, from Amir to Sultan _ Translation of the speech raised by Prince Mustafa Fadel Pasha to His Majesty Sultan Abdul Aziz 1866, Correction: Tawfiq Al -Rafii, Commercial Library, in Arabic, Egypt, 1866.
[8] C. Findley, Bureaucratic reform in the Ottoman Empire the sublime porte 1789-1922, princeton university press, New Jersey, 1980.
[9] H. Al massry, Mojam the Ottoman State, Dar al-thaqafah for publication, in Arabic, Cairo, 2004.
[10] I. Calin, is an introduction to our history and the other and beyond the relations between Islam and the West, translation: Anas Yilmaz, Arab Sciences Press, in Arabic, Beirut, 2021.
[11] M. Al -Awad, Ottoman flashes, Academic Book Center, in Arabic, Jordan, 2018.
[12] M. Al Baalabaki, Mojam A'aalam al moured, Dar Al-Ilm lil-malayen, in Arabic, Beirut, 1992.
[13] M. Al-Boudi, Natural and human influences on trade movement in the Arab Levant during the second half of the nineteenth century AD, Lattakia university journal, in Arabic, Syria, Vol 46, No 4, 2024.
[14] M. Al-mohami, History of the Ottoman Empire, Dar Al -Jeel, in Arabic, Beirut, Edition 1, without date.
[15] M. Amer, History of the Ottoman Empire, Publications of the University of Damascus, in Arabic, Damascus, 2004.
[16] M. Armaghan, Secret History of the Ottoman Empire -unknown aspects of the life of Sultans Bani Othman, translation: Mustafa Hamza, Culture for Publishing and Distribution, in Arabic, Abu Dhabi, 2014.
[17] M. Doson, organized government and administration in the Ottoman Empire during the reign of Muradjah Doson in the late eighteenth and early century, the American University, in Arabic, Beirut, 1942.
[18] N. Yurdusev, Ottoman Diplomaey conventional or un conventional? Published by Palgrave Macmillan, 2004.
[19] O. Ali, Sultan Abdul Hamid II, his life and the events of his reign, Biuk Jamja, in Arabic, Istanbul, edition 4, 2008.
[20] S. Al -Kharashi, how the Ottoman Empire, Dar Al -Qasim, in Arabic, Riyadh, 2002.
[21] S. Colin, Sultans of the Ottoman Empire, Dar Al -Nile, in Arabic, Cairo, 2014.
[22] S. Mustras, the geographical dictionary of the Ottoman Empire, translation: Essam Al -Shahadat, Dar Ibn Hazm, in Arabic, Beirut, 2002.

[23] Sultan Abdul Hamid's notes, translation: Muhammad Harb, Dar Al –Qalam, in Arabic, Damascus, Edition 3, 1991.
[24] The history of Jawdat Pasha, investigation: Abdel -Qader Effendi, Beirut Newspaper Press, in Arabic, Beirut, 1890.
[25] W. Kenneth, The Ottoman Empire, The Teaching company, America, 2017.
[26] WWW. Wikipedia. Org/wiki/.
[27] Y. Ozunna, History of the Ottoman Empire, Translation: Adnan Salman, Vol 2, Al - Faisal Foundation Publications, in Arabic, Istanbul, 1988.